حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر

عضو جمعية العاديات السورية

لا ندحة لمن اراد ان يتتبع تاريخ الحضارة الحثية في سوريا الشمالية من ان يلمّ بتاريخ سائر الحضارات التي ازدهرت بجانبها لارتباط بعضها ببعض الى حدّ كبير ونخص منها بالذكر الحضارة الميتانية التي لا تكاد تذكر في بطون التاريخ الا لماماً لاحتجابها وراء طيات متراكمة من الاسرار والادهار، على اننا سنحاول ان نميط اللثام عن آثار هذه الحضارة القديمة وندرسها على ضوء المكتشفات الحديثة التي أخرجها العلم للعيان من جوف الاطلال وحسر عن وجهها أكمام الاتربة فتوفر منها لدينا بينات لا يرقى اليها الشك ساعدت على تحديد تاريخ تلك الحضارة وتتبع تطورها

تدل بعض الاسانيد التي ترتقي الى فجر الالف الثالثة قبل المسيح على انه كان يُطلق اسم السوباروو على منطقة واقعة في شمالي ما بين النهرين تمتد من جبل زاخو[1] حتى ضفاف نهر الفرات وتشتمل على حدود اشور وميتانيا[2] وان مشاحنات قوية كانت تقع ما بين سكان هذه المنطقة والمملكة الاكادية التي كانت منتشرة في انحاء بابل ويلوح من بعض الآثار ان الحضارة الميتانية قامت على انقاض الحضارة السومرية في هذه المنطقة وتشرّبت من أصولها . وقد دلت بعض الاسماء المنقوشة على لوحات عثر عليها في خرائب أور وسامرّا على وجود عنصر أسيوي بجانب العنصر السامي الاشوري في شمالي شرقي بابل منذ الالف الثالثة قبل المسيح ويبدو لنا هذا العنصر أشد قوة وأكثر انتشاراً في الالف الثانية اذ نلاحظ اشتقاق كثير من الاسماء من لغته الفصية وقيام المملكة الحورية الميتانية في تلك المنطقة على سواحل نهر الخابور

﴿ خارطة المملكة الميتانية ﴾ ان المملكة الميتانية التي كانت تعتبر من اهم المواقع السياسية في تاريخ الالف الثانية ق.م كانت تمتد قديماً بضفاف النهرين اي الدجلة والفرات ثم اتسعت غرباً حتى بلغت شواطىء العاصي وقد كانت عاصمة هذه المملكة «واشوكاني» التي يعين العلامة الاثري

---

(١) Zagros زاخو سلسلة جبال قائمة في القسم الأدنى من آسيا يتألف منها الحد الغربي لمرتفع ايران وهي تمتد من تخوم كردستان حتى حدود بلاد العرب والفرس ويبلغ علوها ٤٠٠٠ متر في قسمها العالي تقطنها اليوم عشائر كردية ولورستانية وبختيارية (٢) راجع مقال الاستاذ تورو دانجان العالم في الآثار الحثية المنشور في مجلة سيريا Syria العدد الثاني عشر عام ١٩٣١

المسيو هروزني موقعها في رأس العين على ضفة الخابور . وكانت هنالك مملكة حورية متاخمة لها او بالحري مدغمة بها في كثير من العلاقات والشؤون وكانت قاعدة هذه المملكة الحورية اورفه على ما يُعتقد وكانت مقدرات هاتين المملكتين مرتبطة بحكم الجوار ارتباطاً وثيقاً بعضها ببعض ولاسيما ما يتعلق منها بتعزيز الدفاع عن تخومهما حتى ان الاشوريين لم يفرّقوا بينهما فأطلقوا عليهما اسم مملكة هانيجلباد . على ان هذا الارتباط بين المملكتين لم يدم طويلاً فبينما نرى المملكة الميتانية آخذة بالاتساع والسيطرة على مرور الاحقاب ، لا تكاد الاسانيد التاريخية تحدثنا عن مصير جارتها التي بدأ يخبو ذكرها على ما يظهر ثم يستدل من كثرة اسماء الاعلام الحورية الواردة في ألواح كركوك [1] وفي غيرها من الآثار المكتشفة في بلاد كنعان وفينيقيا على تشتت شمل الحوريين وانحسارهم من مملكتهم خلال الالف الثانية وهجرتهم الى تلك الديار

﴿ تاريخ المملكة الميتانية ﴾ ان الكتابات الاثرية المكتشفة ليومنا بمختلف اللغات القديمة من حثية واشورية ومصرية أتاحت وضع تاريخ المملكة الميتانية منذ القرن الخامس عشر ق. م فقط بعد ان ظلت احقاباً طويلة أثراً منسيًّا في غياهب الجهل ولعل الحفريات القادمة كفيلة ببث تاريخ ما قبل ذلك العهد من الارض التي طوته تحت طبقاتها العميقة منذ الوف الاعوام فليس بوسعنا اليوم اذاً غير ان نبدأ منذ عام (١٤٥٠) ق . م اذ نقف على صولة ملك الميتانيين «سوزارطاتن پارشطر» الذي استطاع ان يوسّع حدود مملكته ويجلب لعاصمته واشوكاني ابواباً من الفضة والذهب من بلاد اشور . وقد عثر على رسالة مبصومة بخاتمه يباهي فيها بسيطرته على املاك واسعة في شرقي مملكته مما يستدل منهُ على بلوغ سطوته حتى اعالي جبال زاخو . ويؤخذ من كتابة الفراعنة ان الميتانيين بعد أن صدوا غارة الملك تحوتمس الاول في مجدو عام ١٤٨٣ ق.م ما لبثوا ان خضعوا له واستسلموا لمشيئته ثم اندحروا في حروب أخر فولوا الادبار . ويروى انهم احتأوا في الديابيس هرباً من بطش جيوشه الظافرة . وكذلك تكرر اندحارهم عند ما حمل تحوتمس الثاني (١٤٤٧ — ١٤٢٠) ق . م في اوائل عهده حملته المشهورة على سوريا وعبر العاصي متجهاً نحو قادش حيث زحف عليهم وأسر منهم (٥٥٠) جنديًّا — من نخبة جنودهم الاشداء الذين كانوا يؤلفون "حرس المارياني . بيد انهُ سرعان ما انقلبت تلك العداوة الى تحالف وصارت مملكة ميتانيا تعد في مقدمة الممالك الموالية لمصر . وقد وصف امنوفيس الثاني بالكتابة المنقوشة على المسلة النهالية القائمة في معبد الكرنك استقباله كبراء الميتانيين الذين أتوا اليه حاملين الجزية على ظهورهم مستندين منهُ نفثات الحياة باعتباره من مصاف الآلهة

ومما زاد في تعزيز أواصر الصداقة بين المملكتين على توالي الايام زواج تحوتمس الرابع (١٤٢٠ — ١٤١١) من ابنة ارتطاما الاول ملك الميتانيين . على أن رضا ملك مصر بأن يتخذ

(١) نعني بألواح كركوك تلك المجموعة الثمينة التي اكتشفتها بعثة اميركية في يورغان تپه (العراق) سنة ١٩٢٥

له زوجة شرعية خارجاً عن الاسرة الفرعونية كان مما يثير العجب لعلمنا بشدة حرص الفراعنة على نقاء الدم الجاري في عروقهم . فيجمل بنا إذاً ان نبحث عن الاسباب التي حملته على هذا الزواج في ميدان السياسة فنرى في هذا القران رغبة من فرعون مصر في التقرب من الميتانيين لخطب ودهم وحملهم على مناوأة الحثيين من الحلف لاشغال هذا الشعب الباسل الذي كان يخشى زحفه على وادي النيل بعد ان جمع شمله وشكل وحدة قوية في تلك الآونة وأخذ يتطلع الى توسيع حدود مملكته جنوباً. على ان هذا القران على الرغم من شذوذه في بلاط مصر عن الاصول الفرعونية لم يكن ميسوراً من الجهة الثانية كما يظن ، لان البلاط الميتاني كان منقسماً الى حزبين فمنهم من كان راغباً في هذا القران تقرباً من مصر ومنهم من كان راغباً عنه حرصاً على حسن العلاقات مع الجوار. ويذكر تحوتمس الرابع انهُ اضطر أن يرد رسوله سبع مرات متتالية يطلب عروسه ويظهر أنهُ لم يتسنَّ له ان يحظى بها إلا عندما رجحت كفة الحزب الاول. وقد اشترط عليه ان يجعلها ملكة البلاط الكبرى وكذلك كان. وقد عرفت هذه الملكة باسم ميتونيرا وكانت كبيرة الشأن في البلاط . ويلوح من نص رسالة أخرى وجدت في حفريات تل العمارنة موجهة الى أمنوفيس الثالث (١٤١١—١٣٧٥) ق.م. من ملك الميتانيين «توزارطا» بن الملك «سوطارنا» ان هذا الاخير كان أكره على تقديم ابنته المدعوة «جيلوخيبا» حظية لامنوفيس الثالث الذي احتفر بسبب تذكارية بهذه الحادثة الخطيرة . وقد جاء في هذه البسبة انهُ في السنة العاشرة من عهد ملكه تقبل من سوطارنا ملك النهرين الكبير ابنته حظية مع حاشية بلغ عددها ثلاثمائة وسبع عشرة امرأة . فكانت ترمي المملكة الميتانية من وراء ذلك الى تأمين سلامة حدودها من جهة مصر كما كانت ترمي الى علاقتها مع بلاد آشور القائمة في جوارها والتي كانت خاضعة لها تستمد عونها في الحرب والحروب منذ القرن الخامس عشر ق.م. كما تثبت ذلك الكتابات المحفورة على أقصاب المدافع الآشورية التي تذكر أسماء كثير من قتلى ضباط الآشوريين المتطوعين في الجيش الميتاني تحت أمرة ملك هانجلباد الكبير . على ان السلام لم يخيم طويلاً على البلاد الميتانية فما كاد يتوفى الملك سوطارنا حتى نشبت في البلاد الحروب الأهلية واغتال شخص يدعى [illegible] الصغير وأعاد الى البلاط الطابع الوطني بعد ان انتقم من قتلة أخيه في عاصمته واشوكاني. بيد انهُ لم تتسنَّ له السيطرة على المملكة كلها فانقسمت البلاد على ذاتها وانزعهُ أخوه الثالث المدعو «ارتطاما» الملك على مناطقة الحوريين التي استولى عليها بمساعدة الملك الحثي «سبيلوليومه» فسرعان ما استحكم النزاع واشتدت المنافسة بين الاخوين عاهل ارتطاما على مناجزة أخيه الاستيلاء على مقاطعة الميتانيين نفسها ولكنه فشل في هذه المحاولة فشلاً ذريعاً وبعد ان فاتهم توزارطا فرصة هذا الانتصار وبعث بهدايا ثمينة من المغانم التي سلبها [illegible]

رأس الجيول — من الحجر الركاني الازرق يزيد من حجم الرأس الطبيعي قليلاً وجد في ملاّحة الجيول التي تبعد أربعين كيلو متراً شرقي حلب ونقل الى متحف الثوفر وهو يعد من أهم الآثار الميتانية

نحت بارز مجسم من الحجر الكلسي الأبيض بحجم (١,٣٢ × ١,٣٩ × ٠,٣٤ متراً)
اكتشف في تل حلف ونقل الى متحف حلب يمثل الاله أنكيدو المشهور في الاساطير الدينية
القديمة بكونه نصفه انسان ونصفه ثور مع رفيقه جيلجماش يسندان مظلة مزينة بزهر الاقحوان
فوقها قرص الشمس مختصاً على الطريقة المصرية

(حضارة الشرق)

الثالث فكان بينها عجلة مذهبة مع خيول مطهمة وزوجان من الحلى لزينة صدر اخته جيلوهيبا. فلما درى سيبلوليوما بهذا التقرب من فرعون مصر تحاشى ان يشن الغارة مباشرة على توزارطا كما كان مزمعاً الاخذ بثأر حليفه ارتطاما ولكنه اخذ يطوق المقاطعات السورية التي كانت خاضعة لنفوذ الميتانيين ويتزعها منهم بالحنكة والدهاء شيئاً فشيئاً حتى دانت له كل البلاد الواقعة غربي الفرات. ولما شعر الاشوريون بضعف شوكة توزارطا قاموا يطالبون بخلع نيره عن بلادهم فاضطر الى التخلي عن معظم تلك البلاد ايضاً وتخاذلت بذلك صولة مملكته تخاذلاً دائماً. واتفق بعد ذلك ان بعث امنوفيس الثالث في العام الخامس والثلاثين من عهد ملكه برسول الى توزارطا يطلب اليه يد ابنته « تادوهيبا » فطال التداول بين الفريقين ثم انتهى بالموافقة على اعطائها وقد عزز على قائمة الهدايا التي قدمها توزارطا مع ابنته الى فرعون مصر واستوعب تعدادها ٢٣٥ سطراً من سطور الملات الكبرى. ولكن امنوفيس الثالث الذي كان قد شاخ ما عتم ان مرض وأشرف على الخطر وبعث يرسل الى حميه ان يرسل اليه تمثال الآلهة عشتار من نينوى ذاك الآلهة الذي كان معتاداً ان يلتمس الشفاء من يده إذ يظهر من جواب الملك الميتاني الذي أرفقه بالتمثال المذكور انه سبق لهذا التمثال ان حل في وادي النيل قبل بضعة أعوام وأتى بمعجزات خارقة. فيستدل من ذلك أن البلاد الاشورية ما برحت حتى ذاك العهد خاضعة اكثر مقاطعاتها لحكم الملك الميتاني مما أتاح له ان يتصرف بآلهة اشور المقدسة هذا التصرف الحر. على انه بالرغم من وساطة الآلهة عشتار مات امنوفيس الثالث ان قفى نحبه خلفه امنوفيس الرابع (١٣٧٥-١٣٥٨) وتزوج من ارملته الصبية تادوهيبا الميتانية التي يذهب بعض علماء الآثار الى أنها نفس الملكة نفرتيتي المشهورة التي عثر على تمثالها النصفي الجميل في تل العمارنة ونقل الى متحف برلين. وها كم مقتطفاً من نص الرسالة الانيقة التي وردت على فرعون مصر من حميه مهنئاً باعتلاء العرش « عند ما توفي أخي امنوفيس الثالث بكيت عليه أياماً طوالاً ثم لما اليها وانقطعت عن الاكل والشرب حزناً على فقدانه بيد أنه عندما علمت ان ابنه الكبير امنوفيس الرابع حل محله أيقنت ان أخي لم يمت واطمأنت على بقاء العلاقات بيننا على ما كانت عليه »

﴿ التحالف مع الحثيين ﴾ غير انه ما عتم ان تبدل مصير العلاقات المصرية الميتانية وضعف نفوذ الحزب الموالي لمصر في مملكة ميتانيا مما أهاب بالحزب الموالي لأشور ان ينقلب عليه عام ١٣٧٠ ق.م. ويحمل ابن توزارطا على قتل أبيه طمعاً في اعتلاء عرشه ولكنه لم يكد ينتشر خبر وفاة الملك توزارطا حتى اتحد ارتطاما ملك المقاطعة الحورية مع أشوربالي ملك المقاطعة الاشورية وحاولا اقتسام المملكة الميتانية. فعند تطور الحال الى هذه الخطورة مما رئيس الحزب الموالي لمصر بما تعهد ابن مليكه توزارطا الصغير وهرب مع سائر أمنائه بالتي مركبة الى بلدة بابل بيد انه لم يتحصن هناك وقد تبعه وعوامل سلطة الاعداء الفئة فخسر أعوانه وفر أمنته وخرج اليعودا من بابل بضعة عربات من متبعيه والباس الذي عليه وسلك طرقاً غير مسلوكة

كاد يموت فيها جوعاً حتى وصل الى مقر الملك الحثي سيبلوليوما وطلب الالتجاء اليه فلم يخب ظنه بشهامة هذا الملك الكبير الذي كان بالامس عدو أبيه اللدود فأخذ بنصرته وزوجهُ من ابنته وأرفقهُ بأحد أولاده المدعو « ياسيل » وكان هذا قد استولى حديثاً على كركميش فهاجم الاميران معاً مقتصبي البلاد الميتانية ، واستوليا عليها فاختصَّ ياسيل بالمقاطعة الحورية وعاد ماتيعوذا الى عرش أبيه باحتفال باهر بايعهُ فيه سيبلوليوما بالملك بيد انهُ كان قد تأخر حتى البلاد كثيراً وتبددت ثروتها وسلبت غنائمها ، سلبها مستعمروها الذين استنفدوا خيراتها كلها لمنفعة المملكة الاشورية واستعادوا الى عاصمتهم ابواب الذهب والفضة التي كان جلبها الملك سوزاوطا الى واشوكاني . وقد عثر في مكتبة برغاز كوي على نصوص المعاهدة المعقودة ما بين سيبلوليوما وماتيعوذا بنسختيها المتبادلتين مكتوبةً باللغة المسمارية الاكادية التي كانت بمنزلة لغة دولية في ذاك العهد وهي من المعاهدات التي أملت فيها ارادة الجانب القوي على الضعيف وقد سردت في مقدمتها الحوادث الماضية والحروب الواقعة ما بين الفريقين ثم كيفية التجاء ماتيعوذا الى البلاط الحثي واقترانهِ بابنة الملك الكبير وتتويجه ملكاً على ميتانيا ويحث في صلب المعاهدة من نظام معيشة زوجته ابنة الملك الكبير في البلاط الميتاني وعن الميزات التي يجب ان تكون لها في التقدم على سائر زوجات ماتيعوذا اللواتي حدد عددهنَّ بعشر فقط وعن حق تبوُّؤ اولادها وحدهم العرش من بعد أبيهم وعن الطاعة المتوجبة على الرعية لهذه السلالة المباركة والموالاة الدائمة للمملكة الحثية ثم تلا ذلك بنود الاتفاقات السياسية التي تحتم على الشعبين ان يكونا على وفق دائم وان يوحدا جهودهما لدرء غارات العدو عن بلادهما وان يسلكا سياسة واحدة في معاملة العبيد الهاربين من احد الفريقين الى الآخر . وتختم سيبلوليوما نسخته بتسمية نفسه منقذ ميتانيا الاكبر . اما نسخة ماتيعوذا فتكاد لا تفرق نصوصها عن الاولى الا في الحوادث الماضية التي تختص بشخصه فيسهب في بيانها ويزيدها ايضاحاً وتختم هذه النسخة بيمين مغلظة يقسمها بالمحافظة على الولاء وقد أُلمع في ذيلها الى ان كلاً من الملكين قد اودع صورة من هذه المعاهدة في هيكل الاله الذي يدين به واستنزل اللعنة على كل من يعبث بها غير انهُ لم يكتب لماتيعوذا في لوح القدر ان يبقى على العرش زمناً طويلاً فما كاد يتوفى سيبلوليوما حتى بلغه في سنة ١٣٤٧ ق.م. حتى انتهز الاشوريون فرصة ضعف إبان صولتهم وهاجموا البلاد الميتانية التي كانوا يرمقونها من بعيد بعيون ملؤها الجشع والتي لم يكن لها من الحصون الطبيعية ما يرد عنها غائلة الاعداء فأغارت امام قواهم الغالبة عزائم ملوكها الضعيفين فاستولوا عليها وضمها الى سائر اجزاء المملكة الاشورية الكبرى التي طغت إبان صولتها على كل الممالك الصغيرة المجاورة لها وفي ذلك باد ذكر الميتانيين من تاريخ الامم في اواخر القرن الرابع عشر ق.م ولم يبق لهم من اثر غير بعض النقوش المدفونة التي انتشلها العلم حديثاً من بطون الارض وأخذ يقرأ اساطيرها الغابرة على ضوء مصباحه المنير